الآثار النفسية السلبية الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية خلال حربي الخليج الثانية والثالثة

الدكتور محمد بلخادم

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على أهم الآثار النفسية السلبية الناتجة عن العمليات النفسية الأمريكية خلال حربي الخليج الثانية والثالثة، وقد خلص البحث إلى أن هذه الآثار كانت متنوعة ومتعددة، اتخذت أشكالا ظاهرة وباطنة، تراوحت ما بين الآثار النفسية السلبية الآنية (الفورية) كالاستسلام والفرار، والآثار النفسية السلبية المؤجلة كالإضطرابات النفسية. ويعد الاستسلام أهم الآثار النفسية السلبية الآنية، و أكثرها انتشارا بين صفوف القوات العراقية خاصة في حرب الخليج الثانية، بينما كان الفرار أكثرها انتشارا في حرب الخليج الثالثة. أما بالنسبة للآثار النفسية السلبية المؤجلة يعد اضطراب الضغوط التالية للصدمة أكثر الآثار انتشارا في مجتمع اللذين تعرضوا لرسائل العمليات النفسية الأمريكية.

تمهيـــــد:

لقد خلفت الحروب عبر العصور آثارا نفسية سلبية على المجتمعات، وقد شملت هذه الآثار حتى الأفراد الموجودين في المناطق البعيدة عن ساحات القتال بفضل تطور وسائل الإعلام والإتصال والثورة في الشؤون العسكرية. والآثار النفسية غالبا ما تكون عميقة لدى جميع فئات المجتمع مدنيين وعسكريين، لا سيما الأطفال لما يتعرضون له عبر وسائل العمليات النفسية من مشاهد تعذيب ودمار وهتك لحرمة الإنسان الجسدية والمادية والمعنوية.

وتعاني المجتمعات التي تعيش حروبا مستمرة كما في فلسطين ولبنان وبعض الدول الإفريقية والعراق حالة ترقب العدوان ونجد أن مقدمات الحالات النفسية المرتبطة بالعدوان تبدأ في الظهور بمجرد بدأ العمليات النفسية – رمي المنشورات، بث البرامج الإذاعية، وعرض المشاهد في التلفزيون...- التي غالبا ما تؤدي إلى حالات ذعر وقلق وخوف عند الأفراد.

كما أن مجرد سماع صوت الطائرات الإستطلاعية ممكن أن يولد القلق والتوتر يصاحبه فترة الإنتظار والترقب، ومن الأعراض النفسية التي تنشأ عن ذلك، الضجر والعصبية الزائدة، ومشاعر الخوف والرهبة، كما تظهر العديد من الأعراض المرضية مثل الهزال والصداع والصراع وإضطرابات النوم والغثيان والرعدة وخفقان القلب... وكل هذه الإضطرابات تنتج عن الحالة الإنفعالية خلال فترة الإنتظار. وتشير أغلب الدراسات أن طول فترة الإنتظار تحت التعرض لرسائل العمليات النفسية المكثفة، والتهديد بهجوم جوي أو بري متوقع للعدو له تأثير سيئ جدا على العسكريين في جبهات القتال أو على المدنيين خصوصا المتواجدين بالقرب من مواقع العمليـــات. وتجدر الإشارة أن 25 % من الإصابات بمعنى أن حالة واحدة بين كل أربع حالات التي يتم إجلائها، هي حالات هلع وذعر وخوف وقلق.

والآثار النفسية السلبية المترتبة عن العمليات النفسية المصاحبة للعمليات العسكرية إما أن تكون فورية فتؤدي إلى إستسلام أو فرار المقاتلين من الجبهة، وقد تحدث بعد فترة قصيرة جدا فتؤذي جميع الفئات إلا أنها تؤذي الأطفال أكثر من الكبار. وقد تكون مؤجلة مرجأة Deleyad تظهر على الأفراد بعد مدة، ودليل ذلك أن كثيرا من الإضطرابات النفسية ظهرت على الجنود الأمريكيين العائدين من فيتنام بعد مدة. وقد تظهر- الآثار النفسية – حادة Acute، وقد تبرز مزمنة Chronic، وتشير الدراسات النفسية أن 80 % يتعرضون إلى صدمات منهم 8%

يصابون باضطرابات ما بعد الصدمة، ووجد أن الإنسان عندما يتعرض إلى ضغط سواء عن طريق العمليات النفسية أو العمليات القتالية، تحدث تغيرات كثيرة للجهاز العصبي والهرموني وتفرز هرمونات خاصة بالكوتيزون الذي يسبب إذا أستمر الضغط ضمورا في الخلايا العصبية في مراكز المخ المسؤولة عن المزاج والتعلم والذاكرة والتوافق مع ضغوط الحياة فيصبح الشخص منهكا بشكل شديد.

ونظرا لعدم وجود بحوث عن الآثار النفسية المترتبة عن العمليات النفسية في حربي الخليج الثانية والثالثة بدرجة كافية على المجتمع العراقي، فإن بعض الدلائل المتاحة تشير إلى ستة مؤشرات كما يلي:

المؤشر الأول: الملاحظات الشخصية لبعض العراقيين.

المؤشر الثاني: ملاحظات المنظمات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة.

المؤشر الثالث: ملاحظات أسرى الحربين.

المؤشر الرابع: دراسات ميدانية أجريت بعد حرب الخليج الأولى على أسرى الحرب.

المؤشر الخامس: تقارير أجهزة الإستخبارات.

المؤشر السادس: نتائج البحوث العالمية التي تحدد معدلات الزيادة في الإضطرابات النفسية بعد الحروب بوجه عام بأنها تصل إلى ضعف معدلها قبل الحرب على الأقل. وتشير الدراسات الرائدة في علم النفس الحربي إلى أن معدلات الإضطراب النفسي أو العصاب Neurosis تزداد بمجرد بدأ العمليات النفسية التي تسبق العمليات العسكرية، أما معدلات المرض العقلي أو الذهان Psychosis فلا تتأثر بالعمليات النفسية سواء التي تسبق العمليات العسكرية أو التي تتم أثناءها أو التي تأتي بعدها، إلا قليلا.

والآثار النفسية المترتبة عن العمليات النفسية والعمليات القتالية الأمريكية في حربي الخليج الثانية والثالثة متنوعة ومتعددة، تتخذ أشكالا ظاهرة وباطنة، من بينهـــــــــا:

1- الإستسلام والفرار والإنسحاب.
2- المشكلات الإجتماعية كالطلاق وإنحراف الأحداث والعدوانية والعنف.
3- الإضطرابات النفسية والتي تتضمن تشخيصات نفسية هي: القلق والخوف والإكتئاب. ولكل واحدة من هذه الإضطرابات مجموعة من الأعراض بعضها فريد في ذاته، والآخر مشترك مع غيره. إلا أننا لا نستطيع أن نجزم أن هذه المشكلات والإضطرابات لم تكن موجودة من قبل في المجتمع العراقي، إذ لايمكننا أن نتصور مجتمع من المجتمعات خال من المشكلات الإجتماعية أو الإضطرابات النفسية، إلا أن معدلاتها قد ترتفع بعد العمليات النفسية والعمليات القتالية خاصة بعد الصدمة والرعب.

وهناك كذلك عنصر آخر منشط لمشاعر القلق والخوف والإكتئاب وهو إستمرار الحروب في العراق، فمن حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية)، إلى حرب الخليج الثانية 1991، إلى مواصلة التهديد الأمريكي لدولة العراق، إلى الحصار الإقتصادي، إلى الحظر الجوي، إلى المفتشين الأمميين، إلى حرب الخليج الثالثة 2003(حرب غزو العراق) والتي لا زالت مستمرة حتى الآن.

وسنتناول في هذه الدراسة الآثار النفسية السلبية الفورية ثم الآثار النفسية السلبية المؤجلة، الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية في حربي الخليج الثانية والثالثة.

1- الآثار النفسية السلبية الفورية الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية في حربي الخليج الثانية والثالثة:

إن مسار الصراعات والحروب يتغير الآن بشكل كبير بفضل الثورة الجديدة في الشؤون العسكرية، وهذا ما يقتضي إعطاء أولوية متزايدة للبعد النفسي في إعداد العمليات العسكرية والتخطيط لها والقيام بها.

ففي كل الحروب يخوض كل فريق من المتحاربين إلى جانب العمليات القتالية عمليات نفسية لإحداث التأثير النفسي في عواطف وسلوكات وتصورات القادة والأفراد العسكريين والمدنيين المستهدفين لدفعهم إلى القيام بأعمال لصالحه هو.

إن التجربة تثبت أن هناك تداخل بين العمليات النفسية والعمليات القتالية في إحداث مثل هذه التأثير النفسي، والتي على إثره تتحدد نتائج الصراعات والحروب.

لذا يعد تنظيم علاقة العمل والتنسيق والتعاون بين العمليات النفسية والعمليات القتالية في المواقف المختلفة من أهم الإجراءات والتدابير الواجب إعطائها الإهتمام باعتبارها عناصر ثمينة وقيمة لتحقق الأهداف المرجوة والنتائج المرغوبة، ألا وهي هزيمة العدو و إحداث آثارا نفسية سلبية فورية لديه.

1-1- الآثار النفسية السلبية الفورية الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية في حرب الخليج الثانية:

لقد أحدثت الحملة النفسية ، والتحشدات العسكرية، والمواقف السياسية المتشددة تجاه العراق والضربات الجوية – الصدمـــــة والرعـــــب – تأثيرا نفسيا عميقا في تحديد صـــورة النتـــائج المأساوية

للمجابهـــة، وإنعكس ذلك التأثير سلبا على الحالة النفسية للعراقيين مدنيين وعسكريين، لأن التفاوت النفسي بين الطرفين كان من نقاط الخلل الإستراتيجي. **(السمارائي، و. 1997).**

إلى جانب النشاط الفاعل للهجوم على المساحة الكلية للعراق، نشطت فعاليات العمليات النفسية على المستوى الإستراتيجي بين الجانبين. إذ أعلن الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على إحتلالهم جزيرة كويتية في الخليج كانت القوات العراقية تحتلها.

قابلها العراقيون بتنفيذ خطة شاملة لتفجير آبار النفط الكويتية ومخزونها الإستراتيجي معلنين قيام قوات الحلفاء بقصف ناقلات نفط عملاقة الأمر الذي تسبب في ذلك التسرب. لكن ذلك لم يكن مفيدا بالنسبة للقيادة العراقية التي لم تكن تمتلك هامشا لإدارة العمليات النفسية، ولا وسائل لإيصالها إلى المتلقين، بعد أن تمكنت أجهزة العمليات النفسية الأمريكية من توفير الأدلة عن تعمد العراقيين التسرب لخلق ظروف تحول دون إستخدام تلك السواحل للإنزال البحري من الحلفاء. **(الأحمدي، ع. 1994).**

إضافة إلى إستعمالها وسيلة إثارة أخرى بالضد عندما قامت بتحويلها إلى مسألة تلوث بيئة دولية، وبذلك تكون – أجهزة العمليات النفسية الأمريكية – قد حققت ثلاثة أهداف إستراتيجية هامة هـــــــي: **(العبيدي، س. 2003).**

1- اشغلت العالم لأكثر من ثلاث أيام ببقعة الزيت، إذ جعلت الرأي العام العالمي، والعربي ينسون شدة الدمار والإحتجاج عليه.

2- جعلت الرأي العام العالمي، والعربي يزيدون بغضا وعدوانية تجاه القيادة العراقية، وفي نفس الوقت خففوا من النقد على مسار القصف، وسعة الأهداف التي شملت كل الأراضي العراقية.

3- بدأ العرب المشاركين في قوات التحالف اللذين أحرجوا بموضوع الصواريخ العراقية ضد إسرائيل إلى التقليل من أهمية وفاعلية تأثيرها.

وفي هذا الصدد قال الرئيس السوري حافظ الأسد: "أن هذه الصواريخ لا تأثير لها من الناحية الإستراتيجية"، أما الرئيس المصري حسني مبارك فوصفها بقوله: " أنها مجرد لعب أطفال ". لكنها في الواقع وبالرغم من عدم فاعليتها التدميرية بعد أن قام خبراء الأسلحة العراقيون من التخفيف من حجم الرأس الحربي للصاروخ (المتفجرات) للحصول على المدى المطلوب، فإنها ومن ناحية أخرى كان لها تأثير نفسي كبير على الإسرائليين، كما كان لها تأثير على معنى الأمن الإستراتيجي الإسرائيلي الذي كان يتأسس في بعض جوانبه على مفهوم الحدود الآمنة بعد أن جعلت هذه الصواريخ كل الأراضي التي تحتلها إسرائيل هدفا ممكنا.

ومن أجل التخفيف من الضغط النفسي، والتقليل من النتائج المترتبة عن العمليات النفسية الأمريكية، ورفع المعنويات للقوات العراقية قبل الهجوم البري، قامت قوات من الفرقة الخامسة يوم 30 جانفي بإجتياز الحدود باتجاه مدينة الخفجي السعودية وأحتلالها، وقد جاء في أحد رسائل عملياتهـــا النفسيـــة

أنها خطوة لتحرير قبر الرسول (ص) وبداية تحرير كامل الأراضي السعودية من الأجانب.

وفي مقابل ذلك قامت قوات مشتركة سعودية، قطرية وأمريكية في اليوم الثاني من إحتلال الخفجي بالهجوم على القوات العراقية وإزاحتها لمسافة تزيد عن الستة (6) كيلومترات.

حاولت خلالها أجهزة العمليات النفسية للقيادة العامة للقوات المسلحة العراقية أن تقنع الرأي العام العربي والإسلامي والمحلي (العراقي) على أنها كانت مجرد غارة حققت فيها القيادة أهدافها الميدانية، دون التطرق إلى التحرير المزمع لقبر الرسول (ص) والأرض السعودية التي حاولت ترسيخها في عقول المتلقين العرب

والمسلمين لكسب مشاعرهم وعواطفهم واتجاهاتهم، فكانت هذه المعركة ذات تأثير نفسي كبير على القوات العراقية وسببا في تدمير ما تبقى من معنويات.

أما بالنسبة لأجهزة العمليات النفسية الأمريكية بإعتبارها تمتلك زمام المبادرة الإعلامية، فقد قامت بالإشارة إلى أن العراق قد يقوم بإستعمال الأسلحة الكيماوية بهدف جلب الإنتباه لأنه موضوع يهم الرأي العام الأمريكي والأوربي بمستويات أكثر من عملية قصف مدن أو جسور عراقية يموت فيها مئات العراقيين.

مع هذه العمليات النفسية المكثفة على المستوى الإستراتيجي، كانت العمليات العسكرية تسير بشكل جيد بالنسبة للحلفاء الذين حققوا بقصفهم الجوي والصاروخي ما يلي: **(عليوان، هـ. 2004)**.

1- تدمير شبه كلي للأهداف الإستراتيجية والعسكرية في العمق العراقي.

2- بداية التركيز على مقرات الوحدات العسكرية في جبهة القتال.

3- التركيز على طرق التنقل والإمدادات.

4- التركيز على خطوط الإتصالات.

وقد ترتبت عن هذه العمليات النتائج الهامة الآتية:

1- إرتفاع عدد الخسائر بين العسكريين العراقيين.

2- إرتفاع عدد الخسائر في العتاد لدى العراقيين.

3- تناثر جثث القتلى على الطرق وحافاتها بعد عجز الوحدات الطبية الخاصة بالإخلاء.

وفي هذه الأثناء التي أصبحت فيها قوات الدفاع العراقية معرضة للدمار شعر أفراد القوات العراقية أنهم محاصرين بين قوات الحلفاء وكثافة عملياتهم النفسية والعسكرية وبين قيادتهم ودعوتها لمواصلة القتال وعدم الإنسحاب من الكويت تحت أي ظروف مهما كانت.

إن شعورهم بهذا بالحصار أدى إلى صراع الإحجام وإلى إرتفاع نسب الإكتئاب والقلق والفزع والخوف وغيرها من التوترات النفسية، وبالتالي هبوط المعنويات إلى أقل المستويات.

ولإحداث تأثير نفسي على المستهدفين وتحويل مشاعر الصراع والكآبة والقلق النفسي ومشاعر الحصر والتوترات النفسية المختلفة والإحساس بالعزلة من العسكريين إلى المدنيين العراقيين، أعلنت وحدات العمليات النفسية أن عدد الطلعات الجوية على العراق بلغت (54) ألف طلعة ألقي خلالها (60) ألف طن من القنابل. (كلارك، ر. 1993).

ومن أجل إبقاء القلق والتوتر والخوف إنفعالات شبه ملازمة للعقل العراقي لإرهاقه كلية وإستنزاف كل طاقته، قامت الطائرات الأمريكية بقصف ملجأ العامرية ومقتل حوالي ألف شخص. إذ كانت عملية قصف هذا الملجأ ذات تأثير نفسي كبير على معنويات العراقيين، ومن أكثر وقائع الحرب إثارة لمشاعر الأسى. (Kellner, D. 1992).

وبهدف تحويل الشحن الإنفعالي للرأي العام العالمي من موضوع ملجأ العامرية إلى موضوع آخر أقل تأثيرا، إستخدمت وحدات العمليات النفسية الأمريكية تقنية "التحويل" إذ قصفت القوات البريطانية سوقا في الفلوجة مدعية بأن ذلك كان نتيجة خطأ.

فبعد أن مسكت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بزمام المبادرة نفسيا وماديا كأحد مبادئ الحرب، حددوا بداية الهجوم البري، وفقا لعدة إعتبارات أهمهـــــا:(العبيدي، س. 2003).

1- العامل النفسي الذي يتطلب الهجوم بأقل الخسائر، وصلت مستوياته في الجانب العراقي إلى أقل من مستوياتها. إذ أشرت القياسات النفسية التقليدية إلـــى مايلـــي:

1- إنخفاض العامل النفسي الخاص بالقيادة؛

2- الهبوط السريع في المستويات النفسية بين العسكريين والمدنيين؛

3- التناقـــص الملحوظ لطاقـــات العسكريين النفسيـــة منها والعضوية بسبب نقص الحاجات الأولية (المؤونة والمياه).

2- العوامل الفيزقية، لاسيما عامل الطقس حيث الحاجة إلى ملاءمته للتحرك الفعال على ساحة المعركة.

3- عامل الخسارة لعدد كبير من العتاد العسكري في المواقع الدفاعية.

4- إستعراض فاعلية العمليات النفسية للتأثير في دوافع العدو وتهيئته للإستسلام أو الفرار من المعركة.

5- إستعراض فاعلية القوات الجوية والصواريخ الموجهة عن بعد إلى التدخل لحسم المعركة في أي مكان من العالم، وتهيئة الفرص المواتية للقوات البرية على حسم الموقف العام على الأرض بأقل الخسائر.

لقد أدى التنسيق الجيد بين العمليات النفسية والعمليات العسكرية إلى الوصول بالقيادة العراقية إلى الشعور بالهزيمة، خاصة وأن جميع التقارير التي كانت تصل من المراكز النفسية المتقدمة تؤكد على مـــا يلـــي: (**عليوان، هـ. 2004**).

1- الهبوط التصاعدي للمعنويات.

2- التدني المتواتر لدافعية القتال.

3- إزدياد نسب الغياب، والهروب بين الضباط الأعوان والجنود، خاصة الموجودين منهم في الوحدات الأمامية.

4- فقدان السيطرة والضبط لعدد كبير من الوحدات نتيجة رسائل العمليات النفسية المكثفة المصحوبة بالقصف المستمر على مواقعها.

5- الشروع في عمليات التسرب من المواقع الأمامية إلى الخلف، والتي غالبا ما تنتهي بالإستسلام إلى قوات الحلفاء.

وقد بينت نتائج إحدى الدراسات الميدانية التي أجريت من طرف وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) بعد الحرب على عينة تتكون من (250) أسيرا من أسرى الحرب ما هو مبين في الجدول رقم (1): **(البداينة، ذ. 2002).**

جدول رقم (1) يوضح وسائل العمليات النفسية الأمريكية التي تعرض لها أسرى الحرب العراقيين وأثرت فيهم مرتبة حسب أهميتها

أفـــــراد العينـــــة	النسبـــــة
أفراد العينة اللذين رؤوا المنشورات.	% 98
أفراد العينة اللذين سمعوا الإذاعة.	% 58
أفراد العينة اللذين سمعوا مكبرات الصوت.	% 34
أفراد العينة اللذين تأثروا بما جاء في المنشورات.	% 88
أفراد العينة اللذين تأثروا بما جاء في إعلانات وبلاغات الإذاعة.	% 46
أفراد العينة اللذين تأثروا بما سمعوا عبر مكبرات الصوت.	% 81

كما أكدت هذه الدراسة أن رسائل العمليات النفسية التي كان لها التأثير البارز على قرار أسرى الحرب بالإستسلام كانت حسب الترتيب الوارد في الجدول رقم (2): **(البداينة، ذ . 2002).**

جدول رقم (2) يوضح وسائل العمليات النفسية الأمريكية التي كان لها التأثير البارز على قرار أسرى

رسائل العمليات النفسية	النسبة
المنشورات.	%70
إعلانات وبلاغات الإذاعة.	%34
إعلانات وبلاغات مكبرات الصوت.	%16

الحرب العراقيين بالإستسلام

إن حوالي سبعة وثمانون (87) ألف جندي عراقي ممن سلموا أنفسهم لقوات التحالف أكدوا جميعا أنه كان للعمليات النفسية تأثيرا كبيرا على معنوياهم. (Lamp, C. R. 1996)

في هذا الصدد يرى ضابط عراقي سامي أسير برتبة لواء بأنه في المرتبة الثانية بعد حملة القصف التي قامت بها قوات التحالف، كان لرسائل العمليات النفسية لا سيما المنشورات الأثر الأكبر في تهديد معنويات أفراد القوات العراقية.

1-2- الآثار النفسية السلبية الفورية الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية في حرب الخليج الثالثة:

يمكننا تلخيص أهم الآثار النفسية السلبية الفورية المترتبة عن العمليات النفسية الأمريكية في حرب غزو العراق فيما يلي: **(ميلـــــر،د. 2007)؛ (جلاسو، ب. 2003).**

1- إقتناع القادة العراقيين بعدم تنفيذ أوامر إستخدام صواريخ (سكود) و(صمود 2).

2- إنخفاض الروح المعنوية لعدد كبير من جنود وقادة الجيش العراقي مما جعلهم يتخلون عن مواقعهم ويهربون من وحداتهم تاركين أسلحتهم.

3- أمر القادة العراقيين ضباطهم وجنودهم بالتخلي عن مواقعهم والتوجه إلى منازلهم.

4- إختفاء لواء الحرس الجمهوري الخاص، المكلف أساسا بالدفاع داخل العاصمة بغداد باعتباره يشكل الخط الأخير في الدفاع عنها. حيث لم يبد أفراد هذا اللواء أي مقاومة.

5- الإستعداد المسبق للجنود العراقيين للفرار من وحداتهم حتى قبل بدء العمليات العسكرية، فالكثير منهم كانوا يرتدون ملابسهم المدنية تحت ملابسهم العسكرية ويلجأون إلى منازل الأهالي.

6- إرتفاع نسبة الفرار إلى أكثر من 50%، وفي هذا الصدد أورد أحد قادة السرايا أنه من بين (150) فردا كانوا تحت قيادته لم يبق منهم سوى ثلاثة جنود فقط. وحتى العديد القليل من الجنود الذين بقوا في مواقعهم قد أصيبوا بإضطرابات نفسية.

7- في الضواحي الجنوبية لبغداد لم تكن هناك أي إشارة تدل حلى حدوث قتال بحيث لم يعثر حتى على طلقة فارغة أو علامات التعرض للرصاص، ويتبن ذلك من خلال معاينة الدشم الدفاعية والخنادق. مما يدل أن مقاتلوها تركوها قبل أن تهاجم بالقوات الأمريكية.

8- عمليات الإنسحاب العسكري العشوائي والتي تبدو واضحة في متروكات الجنود من ملابس وأسلحة وخرائط وأقنعة غاز...إلخ. **(ماكوي، ر. 2003).**

9- سهولة شراء ولاء الكثير من القادة العراقيين، ودفعهم إلى خيانة النظام. **(ميلـــر، د. 2007).**

10- تعرض المجموعات العراقية وهي في الغالب من الأكراد والشيعة لعمليات غسل دماغ متواصلة، بحيث تم محو الرموز الوطنية والدينية وحتى المذهبية من أدمغة هؤلاء العراقيين، فأضحت آثارها السلبية في ما بعد (مع اندلاع معارك النجف في صيف 2004 ضد جماعة مقتدى الصدر)، ففي معارك النجف

الدامية لعب هؤلاء، وفي إطار ما يعرف بالحرس الوطني، أدوارا قتالية مروعة وبشعة وغير مألوفة، إذ كانوا يقومون بقصف المراقد المقدسة بواسطة المدافع وقذائف الأر بي جي، بينما كانت صيحاتهم وتهديداتهم تتعالى، في كل لحظة من لحظات القتال بنسف قبة الإمام علي. **(الخفاف، ق وآخرون. 2005).**

وتأسيسا على ما سبق يمكننا القول أن الآثار النفسية لحرب غزو العراق بدأت منذ بدء العمليات النفسية أي قبل بدء العمليات القتالية لتبلغ ذروتها مع معركة المطار. التي أربكت صفوف العراقيين وأطلقت كل الشائعات المربكة التي فتحت بغداد بدون معركة.

2 – الآثار النفسية السلبية المؤجلة الناجمة عن العمليات النفسية الأمريكية في حربي الخليج الثانية والثالثة:

قامت الولايات المتحدة الأمريكية إبتداء من سنة 1990إلى سنة 2003 ومنه حتى الآن بممارسات ضاغطة لم تفرق بين العسكريين والمدنيين من العراقيين، ذلك أن صدمة الحرب – العمليات النفسية والعمليات القتالية – قد تعرض لها الجميع. ومن المؤكد إذن أن تكون سببا في ظهور العديد من الإضطرابات النفسية والمشكلات السلوكية وضمت هذه الحالات على الأقل ثلاث فئات هـــي:

1- العسكريـــــــــــــــون.

2- المـــدنيـــــــــــــــون.

3- أسرى الحرب من عسكريين ومدنيين.

2-1- الإضطرابات النفسية لدى العسكريـــين:

لقد عاشت القوات العراقية التي إنتشرت في مسرح العمليات خلال حرب الخليج الثانية 1991 سبعة أشهر من الإنتظار أو التوقع وهذا ما نتج عنه الضغوط السابقة للصدمة – نوع فرعي من إضطرابات القلق – فقد إتسم الجو السائد بالتوتر

والقلق والخوف والإحساس بالضياع والشعور بعدم الآمان، وإضطرابات النوم وضيق الصدر والعصبية والحساسية النفسية المفرطة والملل والتيقظ المرتفع وعدم إمكانية التنبؤ وتغير الأدوار الشخصية والمهنية تغيرا جذريا، – يمكننا تلخيص هذه المشكلات النفسية على أنها (حالة قلق جماعي) – مما أدى إلى آثارنفسية سلبية عميقة. **(الصفهاني،ع ل. 1992).**

وفي هذا الصدد يرى لطفي الشربيني أن مقدمات الحالات النفسية المرتبطة بالحرب تبدأ في الظهور قبل نشوب القتال نتيجة للتوتر والقلق الذي يصاحب فترة الإنتظار والترقب وتعرض القوات لرسائل العمليات النفسية المكثفة ومن الأعراض النفسية التي تنشأ عن ذلك الضجر والعصبية الزائدة، ووومشاعر الخوف والرهبة، والإحباط، وفقدان روح المرح، والإكتئاب، والقلق، والوساوس المرضية، وحالات الذهان، وتزداد هذه الآثار النفسية السلبية تحت تأثير رسائل العمليات النفسية. **(الشربيني، ل. 2007).**

وبعد إنتهاء الحرب ظهر على الكثيرين من الجنود العراقيين إصابات الأشكال الصدمية المزمنة خصوصا: **(الطرابلسي، ع ف. 2004)**

1- عصاب الوساوس المرضية Hypochondria.
2- الأمراض السيكوسوماتية على أنواعها (أمراض الشدائد).
3- الأمراض النادرة أو مايسمى بأمراض الأجهزة.

أما في حرب الخليج الثالثة فقد بينت الملاحظات العيادية وتقارير المنظمات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة أن الحالة النفسية للعسكريين العراقيين سواء أولائك اللذين كانوا في الجبهة أو اللذين كانوا في المؤخرة كانت سيئة جدا حيث ظهر على الكثيرين منهم: **(سلطان، ع. 2004).**

1- التوتر والقلق بشأن المستقبل.
2- الشعور بعدم الآمان والعصبية.

3- تشتت الذهن وضعف التركيز والإنتباه، وعدم القدرة على التفكير المنظم.

4- إضطرابات النوم.

5- العدوانية.

6- الغضب.

7- الإحباط.

8- الكآبة والحزن.

9- فقد الإحساس بالسعادة والبهجة في الحياة.

10- الشعور بالعجز.

11- الإنسحابية.

12- إضطرابات التوقعات.

13- الخوف من المجهول.

14- النفور الإجتماعي.

15- الإحساس بخيبة الأمل.

16- عدم تحمل المسؤولية.

17- تغيير مفهوم الذات الميثالية.

18- الشك الفصامي وفقدان الثقة في كثير من الناس.

ويعد إضطراب ضغوط الصدمة Post traumatic stress disorder (PTSD) من أكثر الآثار النفسية المترتبة عن حربي الخليج الثانية والثالثة.

وفي هذا الصدد تؤكد أحدث الدراسات النفسية كدراسة (لطفي الشربيني. 2007) أن ضحايا الآثـــار النفسية – حالات الإضطراب النفسي – المترتبة عن العمليات النفسية تمثل 25 % من إصابات الحروب، بمعنى أن حالة واحدة من كل أربعة عسكريين يتم إخلاؤها منذ بدء تعرض القوات لرسائل العمليات النفسية، وتزداد هذه النسبة في الخطوط الأمامية خصوصا بين العسكريـــن الموجوديـن

في الجبهة الحقيقية للقتال، وتزداد أكثر بين الأفراد اللذين تتعرض مواقعهم لعمليات نفسية كثيفة وفي نفس الوقت لإصابات مباشرة ينشأ عنها أعداد من القتلى والجرحى. **(حسام، ع ل. 2004).**

بالإضافة إلى الفئات السابقة الذكر هناك بعض الفئات من العسكريين والمدنيين قد يتعرضون للإضطرابات النفسية من هؤلاء جنود المؤخرة اللذين لا يشاركون فعليا في القتال لكنهم يظلون تحت تهديد رسائل العمليات النفسية التي تجعلهم يعيشون حالة تأهب قصوى، والمحاصرين، والعسكريين اللذين ينتقلون من وحداتهم الأصلية إلى أماكن جديدة لم يألفوها، وكذلك عند صدور الأوامر بالإنسحاب. **(سلطان، ع. 2004).**

إن هذه الآثار النفسية الناتجة عن الحروب لا تصيب فقط جنود الأصدقاء بل تصيب أيضا جنود العدو لقيامهم بأعمال العنف، والقتل والتعذيب والتهديد وتعرضهم هم كذلك لرسائل العمليات النفسية، وتوضح الدراسات النفسية المرضية أن للنزاعات والحروب درجة خطورتها على جنود العدو سواء في حالة الإنتصار أو الهزيمة.

وفي هذا الصدد بينت الدراسات التي أجريت على عينة من الجنود الأمريكيين اللذين خدموا في إحدى فرق المشاة بحرب الخليج الثانية، وقد أصيبت وحدتهم بوفاة عدد من الجنود، أنه ظهرت عليهم أعراض إضطراب ما بعد الصدمة، بسبب الآثار النفسية السلبية، وقد عبر 39% من أفراد العينة عن معاناتهم من مشكلات في النوم وكوابيس بعد نقلهم إلى ألمانيا للعلاج، وذكر أكثر من 30 % زيادة تناولهم للخمور، للتعامل مع هذه المشكلات. **(مؤمن، د. 2007).**

ونفس النتائج توصلت إليها دراسات أخرى أجريت على عينة مكونة من الجنود الأمريكيين المشاركين من خلال القوات الجوية والبحرية والبرية، خلال حرب الخليج الثالثة.

2-2- الإضطرابات النفسية لدى المدنيين:

المدنيون هم أغلب سكان العالم، ويشملون الأطفال، والشباب، والراشدين، والعجزة من الذكور والإناث، وهم الضحايا في حالات الإحتلال، والإعتداء.

لقد نجمت عن حربي الخليج سواء الثانية أوالثالثة آثارا نفسية وإجتماعية وتربوية سلبية على فئات كثيرة في المجتمع العراقي، وبخاصة الأطفال والنساء والشيوخ، وبالرغم من قلة الدراسات التي إهتمت بالآثار النفسية الناتجة عن العمليات النفسية أو العمليات القتالية على المدنيين في هتين الحربين فإنه يمكن القول إن هذه الآثار تتمحور حول حدوث حالات نفسية مرتبطة بالتوتر النفسي، والصدمة النفسية، وهي على الخصوص: **(الغازي، ع ع. 2007)**.

1- حالات التوتر الحاد.

2- حالات إضطراب التوتر مابعد الصدمة.

3- حالات نفسية مرضية أخرى.

1- حالات التوتر الحاد:

ورد في موسوعة تشخيص وإحصاء الإضطرابات النفسية تعريف التوتر الحاد بكونه:

1- حالة الفرد الذي تعرض لحادث صدمة تتميز بخاصيتين:

1- يكون الفرد قد تعرض، أو عايش، أو شاهد، أو واجه حدثا، أو أحداثا تتعلق بالتهديد أو التهديد بالموت، أو الموت أو جروح خطيرة أو تهديد كيانه النفسي أو الجسدي أو الكيان النفسي أو الجسدي للآخرين.

2- رد فعل الفرد يكون الخوف الشديد، وإستحالة تلقي المساعدة، والرعب.

2- أثناء أو بعد حدوث الصدمة، تنتاب الفرد على الأقل أربعة أعراض إنفصامية منها:

1- غياب الإستجابة.

2- نقص معرفة محيطه.

3- إنفصام الشخصية.

4- فقدان ذاكرة إنفصامي.

3- إستعادة حادث الصدمة، ولو على الأقل مرة واحدة على شكل صور أو أحلام.

4- إفراط تجنب المثيرات المرتبطة بالصدمة، كرسائل العمليات النفسية مثلا.

5- إفراط القلق.

6- تصدع العلاقات الإجتماعية والعلاقات المهنية وغيرهما.

7- يظل الإضطراب من يومين إلى أسابيع.

8- الإضطراب لا يكون سببه تأثير مباشر لمواد، أو حالة صحية.

ويظهر إضطراب التوتر الحاد عند الأفراد أثناء حدوث الصدمة أو خلال الشهر الذي يليها، وتتميز ردود الأفعال المترتبة عن الصدمة بإضطرابات نفسية مختلفة منها: القلق، وحالات إنفصامية وسلوكية لها إنعكاسات مهمة على وظائف وقدرات الفرد.

2- حالات إضطراب التوتر مابعد الصدمة: يتميز إضطراب توتر ما بعد الصدمة بحالة فرد تعرض لصدمة وهي ذات خاصيتيـــــن:

الخاصية الأولى/ يكون الفرد قد تعرض، أو عايش، أو شاهد، أو واجه حدثا، أو أحداثا تتعلق بالتهديد أو التهديد بالموت، أو الموت أو جروح خطيـــــرة أو تهديد كيانه النفسي أو الجسدي أو الكيان النفسي أو الجسدي للآخرين.

الخاصية الثانية/ رد فعل الفرد يكون الخوف الشديد، وإستحالة تلقي المساعدة، والرعب، وعند الأطفال يظهر سلوك غير منظم ومرتبك.

ويمكن تلخيص أعراض توتر ما بعد الصدمة فيما يلي:

1- تطفل ذكرى الصدمة.

2- سلوكات تجنب ذكريات الصدمة.

3- إفراط التيقظ.

وهذا الإضطراب عامل محدد لظهور إضطرابات نفسية أخرى مثل: الإكتئاب والإفراط في تناول المشروبات الكحولية والمخدرات والميول الإنتحارية وسلوكات العنف الأسري.

ومن بين الحالات الذي يذكرها لطفي الشربيني حول الآثار النفسية المترتبة عن الحروب بالنسبة للمدنيين – والتي تنطبق على الحالة العراقية – هي حالة بعض الأطفال الذين تزيد لديهم مشاعر الخوف الشديد مما يدفعهم للإلتصاق بالأب أو الأم وعدم القدرة على التواجد بمفردهم والإبتعاد عن أي مكان مظلم وهذه علامات على تأثر الأطفال العفوي والتلقائي بهذا المناخ العام رغم عدم فهمهم الكامل لكل الحقائق، وعندما يسمح لهؤلاء الأطفال التعبير عما يشعرون به بالرسم فإنهم يعبرون برسم المدافع والطائرات والدبابات والصواريخ ومشاهد المناشير متصاقطة والقتال التي غالبا ما تأثروا بها من خلال الوسائل المستخدمة في العمليات النفسية حيث تختزن هذه المشاهد في أذهانهم وتظل تؤثر على سلوكياتهم لفترة طويلـــــــة.(**الشربيني، ل. 2007**).

2-3- الإضطرابات النفسية لدى أسرى الحرب العراقيين:

بعد إحتلال القوات الأمريكية للعراق، إتخذت من سجن أبي غريب مكانا لإحتجاز معتقليها من عسكريين ومدنيين، وحسب المصادر الأمريكية أن عدد الأسرى في سجن أبي غريب بلغ حتى شهر أفريل 2004 (4500) أسيـــر، وأن هناك إحـــدى عشـــر (11) ألف أسير تم توزيعهم في سجون أخرى في العراق. بينما أشارت منظمة إتحاد الأسرى والسجناء في العراق، وهي منظمة غير حكومية، إلى أن لدى القوات الأمريكية (200) ألف أسير عراقي من عسكريين ومدنيين. **(العرب أونلاين. 2004).**

وقد تعرض هؤلاء الأسرى لعمليات غسل الدماغ بإستخدام مختلف أنواع الضغوط الجسمية والنفسية والإذلال الجنسي، وذلك من خلال إلزامهم قسراعلى الإستسلام والطاعة، وقد تولد عن هذه العمليات آثارا نفسية سلبية أهمها: **(الأعوج، أ س. 2005).**

1- تفريغ بعض العقول العراقية من قيم ورموز ومعتقدات حضارتهم وإعادة تعبئتها بقيم ومعتقدات ورموز الثقافة والحضارة الغربية بصفة عامة والأمريكية بصفة خاصة.

2- فقدان الثقة في الوطن والأمة.

3- الإجهاد والوهن.

4- الشعور بالضعف والعجز.

5- عدم القدرة على المجابهة.

6- العجز عن التعبير وإبداء الرأي.

7- إستهجان بعض العراقيين الأفكار والمفاهيم والمسلكيات التي كانوا يحملونها والتي لم تعد مقبولة في نظرهم.

8- إستحسان بعض العراقيين الأفكار والمفاهيم الجديدة المطروحة من قبل الأمريكيين.

أما فيما يخص الآثار النفسية المترسبة فقد أورد هنتر Hunter 1978 ظهور آثار نفسية على أسرى الحرب الأمريكيين في فيتنام وإتضح أن هذه الآثار تتناسب طرديا مع مدة الأسر، فكلما زادت مدة الأسر زاد احتمال ظهور الاضطراب على الأسير بعد عامين من إطلاق سراحه. وإتضح أيضا أن الجنـــود الذين كان لديهم عوامـــل مهيئة ومشكلات سابقة فقد ظهرت معظم الأعراض لديهم على شكل إضطراب في العلاقات الزواجية، شخصية وسواسية قهرية، شخصية هستيرية، الإكتئاب، القلق، والإدمان على الكحول. (Hunter, E. J. 1978).

وفي حالة الأسرى العراقيين فقد ظهر على بعض الحالات التي تم إكتشافها من طرف المنظمة العالمية للصليب الأحمر الدولي، الأعراض التاليـــــة: **(العرب أونلاين. 2004)**.

1- الإضطراب الإنفعالي وعدم الإتزان العقلي.

2- ذكريات مؤلمة عن الحدث الصادم.

3- كوابيس وأحلام مزعجة ذات علاقة بالحدث.

4- الإنعزال وعدم الإهتمام بالعلاقات الإجتماعية سواء مع الإصدقـــــاء أو الأشخاص المقربين، وهذا ما يسمى في الغالب بالتخدير الإنفعالي Psychic numbing or emotional anesthesia حيث يفقد الشخص القدرة على التعاطف مع الآخرين، وكذلك يفقد الإهتمام بالنواحي الجنسية.

5- الشعور بالقلق.

6- فقدان القدرة على التركيز.

7- إضطرابات الذاكرة.

وغالبا ما تظهر هذه الأعراض بعد التعرض للإغتصاب أو التعذيب.

وبالرغم مما تقدم فإن العديد من الأسرى اللذين كانوا ضحايا لعمليات غسل الدماغ – باعتباره أحد أساليب العمليات النفسية – باستخدام أسلوب التعذيب الجسدي والنفسي، لا يرون أن هناك علاقة بين الخبرات الصادمة التي تعرضوا لها والأمراض الجسمية والنفسية أو حتى السيكوسوماتيكية والمشاكل الإجتماعية التي يعانون منها، على حين أن عددا قليلا منهم يدرك أن خبـــراتهم تلك قد أثرت عليهم سلبا ولكن تلك الآثار لم تتعدى حدود فقدان الثقة في الآخرين أو الشعور بالخجل. **(رمزي، ع ل. 1981).**

ويترتب عن ذلك أن هؤلاء يمتنعون عن طلب المساعدة نظرا لحساسية ذلك بالنسبة لهم، خاصة وأنهم يحاولون بشكل مستمر التخلص من عقدة الشعور بأنهم ضـــحايا من ناحية، وتجنب وصمة غســـل الدمـــاغ من ناحية أخرى. بينما يرى لانجـــر Langer 1987 أن سبب إحجام هؤلاء الأسرىعن طلب المساعدة هو إعتقادهم أن ما تعرضوا له من عمليات غسل دماغ (التعذيب الجسدي والنفسي) فوق التـــصور ومن ثم إقتناعهم أن أحدا لم يصدقهم. **(الغزالي، م ع. 1990).**

وتكتسب ظاهرة الإحجام عن طلب المساعدة أهمية خاصة لدى الأسرى العراقيين اللذين أسروا وطبقت عليهم مختلف عمليات غسل الدماغ (التعذيب الجسمي والنفسي والإذلال الجنسي) في سجن أبي غريب وغيره من السجون العراقية، فالأسير بطل في نظر الجميع، والبطل يتوجب عليه أن يبقى شامخا مرفوع الهامة على حين أن المعاناة النفسية وصمة وعلامة من علامات الهزيمة والضعف، خاصة إذا ما علمنا أن العرف العشائري السائد في بعض مناطق العراق يدعم هذا الإتجاه. **(الخفاف، ق وآخرون. 2005).**

لعل إعطاء الإهتمام الكبير للعمليات النفسية والكيفيات الخاصة بتطبيقها من طرف الحكومة الأمريكية بات أمرا ضروريا، خاصة إذا ما أخذنا بعين الإعتبار

تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في آن واحد في أكثر من نزاع، مما يؤدي إلى تقلص واضح في القوة، بالنظر إلى المحيط السائد ومستوى حدة النزاع.

المراجـــــع:

1- الأحمدي، عبد الله (1994). **الحرب النفسية في أم المعارك**، مكتبة جامعـــة بغـــداد، العراق.

2- الأعوج، أسامة سمير (2005). **التغيير العقائدي لسجناء أبي غريب**، بدون دار نشر، العراق.

3- البداينة، ذياب (2002). **الأمن وحرب المعلومات**، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

4- السامرائي، وفيق (1997). **حطام البوابة الشرقية**، شركة دار القبس للصحافة والنشر، الكويت.

5- الشربيني، لطفي (2007). **مواجهة الحرب النفسية وقهر الإرادة**، الأسكندرية: Lotfy a a a yahoo. Com.

6- الصفهاني، عبد اللطيف (1992). **إضطرابات الإنتظار والتوقع في حرب الخليج الثانية**، بدون دار نشر، بغداد، العراق.

7- الطرابلسي، عبد الفتاح (2004). **ضغوط الصدمة**، دار العلم للملايين، العراق.

8- العبيدي، سعد (2003). **نوايـــا وحـــروب**، الطبعة الأولـــى، مؤســـسة المعـــارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

9- العرب أونلاين (2004).<http ://www.alarabonlinz. Org >

10- الغازي، عبد العزيز (2007). **الآثار النفسية الناتجة عن الإحتلال والإعتداء على المدنيين**. بدون دار نشر، المملكة المغربية.

11- الغازي، محمد علي (1990). **الآثار النفسية للتعذيب الجسدي والنفسي**، دار إقرأ، بدون بلد.

12- جلاسو، برايان (2003). **العمليات النفسية في حرب العراق**، ترجمة: محمد عبد العزيز محمد، مركز معلومات الدفاع، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية.

13- حسام، عبد القادر (2004). **الإضطرابات النفسية في الحروب**. بدون دار نشر، العراق.

14- رمزي، عبد الكريم (1981). **الآثار النفسية لغسل الدماغ**، بدون دار نشر، بغداد، العراق..

15- سلطان، عاطف (2004). **الآثـــار النفسية للعدوان الأمريكي على العراق**، بدون دار نشر، بغداد، العراق.

16- عليوان، هشام (2004). **نهاية اللعبة سيناريوهات السقوط واحتمالات المقاومة**. الطبعة الاولى أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان.

17- **الخفاف قاسم**، مؤيد. أدم، روبرتس. فريدمان، جورج. حسيب، خير الدين. صباح، ياسين. الربيعي، فاضل. شومان، محمد. محمد، نصيرة. بلقزيز، عبد الإله (2005). **الإحتلال الأمريكي للعراق صوره ومصائره: الصورة الذهنية عن أمريكا في المجتمع العراقي بعد نشر صور تعذيب السجناء في أبي غريب**، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان

18- كلارك، رامزي (1993). **جرائم الحرب الأمريكية في الخليج**، ترجمة: مازن حامد، الشركة الأردنية للصحافة والنشر، الأردن.

19- ماكوي، ريان (2003). **فرقة المارينز الأولى**، منـــشورات البنتـــاغون، الولايـــات المتحدة الأمريكية.

20- مؤمن، داليا (2007). **قراءات في الصحة النفسية**، دار الأمل للطباعـــة، القـــاهرة، جمهورية مصر العربية.

21- ميلر، دايفيد (2007). **أخبرني أكاذيب، الدعاية والتضليل الإعلامي في الحرب على العراق**، ترجمة: إبراهيم العريس، بيسان للنشر والتوزيع و أدوكارت الشرق الأوسط، بيروت – لبنان.

22- Hunter, E. J. (1978). The Vietnam Pow Veteran : Immediate and long term effects of captivity. In C.R. Figley (Ed). Stress disorders among vietnam vterans : theory, research, and treatment. New York : Brunner/ Mazel.

23- Kellner Doglas (1992). The persian Gulf, T. V. war. New York. Kwest Viw press.

24- Lamb. C. R (1996). Military Psychological Operations, term paper For COSC 511. May 4, 1997, citing stephen, T, hosmer, Psychological Effects of U. S. Air Operations in Four Wars 1941-1991, Rand, Santa Monica. CA .pp 149-150.